ما وراء الظلام.. النور

قصص قصيرة

الشيماء بوزوادة

ما وراء الظلام.. النور

الشيماء بوزوادة

ما وراء الظلام.. النور

قال الله تعالى:

قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)

سورة الشعراء

إهداء

إلى نفسي المبتدئة في كل شيء..

سأراك يوما ما باحثة في الرياضيات ولكِ اسم في القصة القصيرة..

اصبري..ثابري..تحملي..

ستصلين إلى مرادك بإذن الله..

شكر خاص لـ :

- معنونة قصصي بلغالي حياة -ياسر مبرك

-بن عياد سارة -الشاعر مختار حامة

-الأستاذة بوزوادة نعيمة -الكاتب عُقْبَة عزة

-بوزوادة أميرة -الأستاذ شايطة محمد

-القاصة ومصممة الغلاف شيماء نجم عبد الله

-خطار رحمة

-الأستاذة ريغي شيماء

الفهرس

إلى النور.....(1)

الضريح.....(8)

رسالة في زمن الكورونا.....(14)

دمعة قهر.....(21)

روح بين طرفين.....(28)

طيف الأم الهامس.....(34)

على حافة مستنقع الدم.....(41)

في جحيم بيتنا زهرة.....(45)

مقدمة:

سترش علينا الأيام رذاذها الأسود كي تلطخنا..

سنسقط في الجحيم ولن نجد يدا ممدودة إلينا لتنتشلنا..

سينحسر عقلنا داخل صندوق الخرافات..

سنفقد أعز ما نملك.. نبحث عنه لكننا لن نجده..

هذا هو الظلام وما بعد الظلام.. النور..

ستفرش لنا الأيام بساطا من الزهور..

سننجو من الجحيم بلا علمنا فهناك قوة تستطيع تغيير كل شيء..

الخرافات ستندثر مع الوقت..

ما نبحث عنه سيكون دائما بجانبنا..

وفي الأخير.. سَيُفتح لنا الباب الموصد..

إلى النور

ها قد عاد مرة أخرى لهذه الغرفة المنعزلة عن العالم الخارجي، المتواجدة بأقصى يمين المنزل الكئيب، بها نافذة غير مكتملة البناء، زجاجها مكسور، تدخل منها ريح الشمال تسحب أذيالها الباردة وتنشرها في حجرته أيام الشتاء، تطلُّ عليها شجرة التِّين السامقة، ذات الأوراق الخضراء الداكنة، كبيرة الحجم تشبه زهرة البرسيم الثلاثية ومتفرعة الأغصان، اتَّخذتها العصافير سكنا لها وصنعت أعشاشها عليها؛ لربما كانت تلك الشجرة الشيء الوحيد الحسن في ذلك البيت الحزين، فقد أنبتت لهم تينا مشبعا بالعسل..

أرخى الظلام سدوله، وجاء دور الليل كي يحل على الأرض ببذلته السوداء، المزينة بخرزات فيروزية اللون..

ضغط عدة مرات على قاطعة الضوء فتذكَّر أنَّ الضوء منقطع ولم يسدد فاتورته، فهو لم يجد المال الكافي حتَّى لشراء الأكل ليسد جوع البطون الفارغة..

أراد البحث عن شمعة يجلس بجوارها، يتغزل بضوئها ويستنير بها؛ فتذكَّر وجود واحدة مبتورة في غرفة أمه..

ذهب يمشي بخطى متثاقلة ملازما للجدار ومستندا عليه فقد جعل الظلام على بصره غشاوة..

وصل لمراده، فتح باب الغرفة فَعَلا صوت صريره والتقطت أذناه أنين أمه المريضة المنزوية في ركن الغرفة المعتمة، النائمة على حصير قديم بلا غطاء، تحسَّس قدماها بيديه الخشنتين المكتسية بالسمرة المليئة بالجروح والالتهابات؛ كانت باردة رغم حرارة الصيف، لم يستطع تركها هكذا، فبدأ ينفخ الهواء الخارج من فمه في يديه حتَّى جعلهما دافئتين ووضعهما على رجليها..

بقي على هذه الحالة لمدة نصف ساعة، بعدها خرج من عندها ونسي السبب الَّذي قدم من أجله..

بجانب غرفتها كان نائما أخوه الصغير الفاقد للطفولة، هزيل البنية، محطَّم الروح، لا يعرف معنى أن يحب شيئا أو يكرهه فقد كان فارغا من الداخل، لا يعلم إن كان سيطعم بطنه بأكل طيب أو يقتات الخبز المرمي في الشوارع، من بعمره يلعبون ويمرحون يتسابقون ويتفاخرون بما لديهم من ألعاب لكنَّه لم يكن لديه سوى تلك السيارة السوداء الصغيرة، اشتراها له أخوه الأكبر عندما بلغ ثلاث سنوات، بقي محافظا عليها فلم يصبها خدش واحد، كانت صديقته الوحيدة؛ يكلمها ويضحك معها ولا ينام إلاَّ بها، يجعلها بالقرب من وسادته المقطَّعة، فمرة على مرة تخرج منها قطعة صوف صغيرة..

اقترب منه؛ سمع سرقعة أسنانه وصفير أنفه، أحسَّ بعدم قدرته على التنفس جيدا فالزكام قد أشبعه مخاطا، لمس وجهه اللين، مرَّر سبابته على عينيه ووجنتيه، فرك شعره الرطب الطويل الَّذي غطَّى أذناه ثمَّ ترك قبلة عميقة على جبينه المتعرق، قطع من قميصه العتيق قطعة قماش

وبلَّلها بالماء الَّذي كان في القارورة بجانب فراشه، ثمَّ وضعها على جبهة أخيه حتَّى تنخفض حرارته..

انتصف البدر في السماء وأرسل نوره لتلك الغرف فانزاح الغشاء عن عينيه واستطاع المشي براحة دون التصاقه بالجدران..

عاد إلى غرفته من جديد ووجدها مضاءة ضياء ناعما خفيفا؛ لعب القمر دور المصباح ودور الشمعة.. عكس جماله المتسلل من النافذة على وجهه عندما قابلها، نظر في الأرجاء، لم يجد سوى الفأرة السارقة للخبز اليابس مرَّ على وجوده يومين، أراد أكله كي يوقف أصوات معدته الَّتي لا تتوقف عن الصراخ، لكن الفأرة نالت جزءا من شفقته وعطفه فتركها تأخذ لقمتها لأنَّه كان متيقنا بأنَّ رازق الفأرة سيرزقه ولو بعد حين، أمعن النظر في الزاوية، تذكَّر وجود حبة حلوى في جيب سرواله الَّذي وضعه هناك، كان قد أعطاها له أحد الشيوخ عندما رآه حاملا لأكياس الطحين الثقيلة على ظهره كي يضعها في شاحنة التوصيل، ووجهه ممتلئ ببياضها حتَّى أنَّها محت ملامحه العربية؛ فصبغت حاجباه الغليظان ورموشه الطويلة، أخرج الحلوى فإذ به يجد النمل محيطا بها، فما كان عليه سوى تركها له حتَّى يشبع جوعه، أدار جسده وسقط على لحافه البال محتضنا إياه بقوة حتَّى شعر بآلامه الَّتي تعدَّت وفاقت قمم الجبال، انهمرت دموعه من عينيه العسليتين كانهمار الأمطار الغزيرة بعد طول انتظار، كان يكبت حزنه في كل خلية من جسمه، لم يصدر صوتا في بكائه فحباله الصوتية اعتزلت النطق تلك الليلة وتركت لعينيه حرية الكلام..

بدأ يتحدث في قرارة نفسه، يبحث عن سبيل لإخراج عائلته من هذا الوحل، أراد أن يذهب بهم من هذه العتمة إلى ذلك النور، أراد رؤية أمه في حالة جيدة بعدما ضاعت صحتها، أراد أن يعوضها في السنين العجاف الّتي عاشتها، أراد أن يعيد لأخيه طفولته المفقودة..

فكر وفكر وفكر لكنه لم يجد حلا سوى أن يترك أمره لله ويرجوا مولاه أن يساعده..

سترت جفونه تلك الأعين الممتلئة باللون الأحمر وهدأت روحه بعد الاضطراب الّذي شهدته..

بزغ فجر يوم جديد وعلت أصوات المآذن بالصلاة خير من النوم، نهض وذهب لبيت الله كي يصلي، دعى وبصوت يخترقه الألم كما تخترق السكينة الجسد:

-اللّهمّ إنّ أمي قد مسّها الضر فارحمها وأنت أرحم الراحمين، اللّهمّ إنّي مغلوب فاجعلني منتصر، اللّهمّ إنّي في ظلمات بطن الحوت كذا النون فسبحانك إنّي كنت من الظالمين، اللّهمّ إنّ المشاكل تتداركني من كل مكان لكنك معي فاهدني، اللّهمّ إنّ حياتي عاقر فارزقني رزقا حسنا، اللّهمّ أعِني على حسن طاعتك واجعلني من الصالحين القانتين الشاكرين..

أكمل دعاءه وسجد طويلا حتّى سقطت شوائبه وابتلعتها شقوق الأرض، أخذ كتاب القرآن، جلس ووضعه بين كفيه الواسعتين، فتحه على سورة الشعراء فقد كانت أحبّ سورة لقلبه، بدأ يرتل الآيات ويذرف دموع الطاعة والحب، واقعة على صفحاته المباركة؛ فأحسّ القرآن به وأزاح الهمّ

عن صدره، كان كيوم ولدته أمه خال من المعاصي خال من النكبات، القرآن كان حبه وحبيبه، حصنه و ملجأه، أمانه ومأمنه.. خاط شراييِنه النازفة وأعاد تركيب أفكاره المبعثرة ولملمة شتات نفسه؛ كان ملاذه الحامي من كربات الحياة، هرب من مشاكله إليه فلم يجد سندا له سوى كلام خالقه الشافي للجروح، أكمل تلاوته، ضمه إلى صدره بقوة ثمَّ قبَّله واستنشق رائحة غلافه؛ أعاده إلى مكانه وقال بصوت خافت:

-أشتاق لك كثيرا، أتمنَّى لو أبقى معك دائما، ممسكا لك ولساني لا ينطق إلاَّ بك..

كانت روحه معلقة به، تركه كما تترك الأم ابنها في مكان وتذهب لمكان آخر، ذهب في سبيله كي يعمل و يأخذ ماله بالحلال..

بدأ بحمل أكياس الطحين الثقيلة على ظهره و هو يئن من الألم..

كان قرص الشمس يرتفع بهَوَادَة لينبض في قلب السماء، مضى العاملون كي يأخذوا قسطا من الراحة وليأكلوا شيئا كي يسترجعوا قوتهم، لكنَّه لم يستطع خسارة نقوده القليلة وترك أمه بلا دواء؛ فشدَّ أزره وتحمَّل الجوع؛ عاد العمال وبدأ من جديد حمل الطحين ولم يلبث كثيرا حتَّى توقف وأحسَّ بألم شديد في ظهره.. تقدَّم إليه صاحب المحل بخطوات متعجرفة رافعا لرأسه وحاجبه الأيمن، واضعا يديه داخل جيوب سرواله الأنيق ومصففا لشعره البني، قابله ووجده مستند الظهر على الحائط، نظر إليه نظرة احتقار واستعلاء بأعينه الحادة ومخرجا منها لهيب الاستهزاء والذلّ..

- هاااي، يا أنتَ ! أظنّني قد دفعت لك أجرك اليوم، هيَّا انهض وأكمل العمل..

حاول طه التحكم في أنفاسه فقد كان قلبه يدق بشدة ويسمع طقطقة عظام عموده الفقري، جعل من الحائط مساندا له على النهوض، حاول الاقتراب من صاحب المحل لكن الآخر تراجع بخطوتين للوراء متعصبا منه وقال:

- لا تقترب مني، رائحة العرق والأوساخ تغمرك، لا أريد لقميصي الباهظ الثمن أن يتلطخ..

احمرَّت أعين طه وأراد البكاء، لكن كتم المشاعر الَّتي خالجته، أحنى رأسه وقال:

- آسف، سأكمل العمل..

انتهى اليوم، غابت الشمس على استحياء وخجل تاركة في السماء حمرة وجنتيها المختلطة بألوان مساحيق الشفق، ذهب إلى الصيدلية بخطى متثاقلة خافض الرأس واشترى لأمه الدواء، خرج منها يمشي بصعوبة منكسر العظام وعلى حين غرة أحسَّ بوخز على ظَّهره فتأوَّهَ منه، التفت وراءه فوجد الشيخ الَّذي أعطاه الحلوى ذلك اليوم، البالغ من العمر عتيا والمشتعل الرأس شيبا، منحني الظَّهر، يتوكأ على عكازه المصنوع من النحاس النقي برأس مستديرة..

نظر إليه طه بأعين ناعسة أفصحت عمَّا يخالجه من حسرة وأسى قائلا بصوت منكسر:

-نعم يا شيخي هل هناك شيء؟

رد الشيخ الداودي الصوت المغرق بالعذوبة والمبلسم للأذن:

-لا لا، أردت إلقاء السلام فقط..

- أهلا بك يا شيخي..

راحوا يدبُّون في الأرض مع بعض صامتين حتَّى نفض الشيخ غبار السكوت عن فمه و قال:

- أَوَ تعلم شيئا؟ أنت رجل شهم، عامل مثابر، أتمنَّى لو كان الناس مثلك هكذا..

-شكرا شيخنا، هذا من دواعي سروري..

- لقد رأيت معاملة صاحب المحل لك، لكنك لم تقل شيئا..

- نعم، هذا لا شيء، المهم أنني آخذ رزقي بالحلال..

-هل تعلم شيئا آخر يا بني؟

-ما هو يا شيخي، أخبرني..

-لدي محل لبيع الطحين، وابني كان مسؤولا عنه لكنَّه سيسافر لألمانيا، أنا الآن أبحث عن شخص يتحمل مسؤولية التجارة في المحل ورأيتك تستوفي شروط العامل الممتاز، أتمنَّى أن تقبل عرضي..

الضريح

في ذلك الصباح المشرق الَّذي ارتفع فيه قرص الشمس، مرسلًا سلامه الحار إلى تلك القرية النائية، طارقًا باب أحد البيوت وسط سهل مفروش بالسنابل الذهبية، المتمايلة بغنج على ألحان نسمات الهواء الصيفية؛ استيقظت عائلة زروقي مع صياح الديك ليقوم كل فرد منهم بعمله؛ فالأم الحنون نهضت أولا لتقوم بأعمالها المنزلية وحضَّرت فطور الصباح، خرج الأب لقطف ثمار التين الَّتي تقطر عسلًا من الأشجار الموجودة بساحة المنزل ووضعها في آنية مخصصة لها ليأكلوها عند الغداء، أمَّا سليمان، الابن ذو العشر سنوات، أرسلته والدته ليملأ جرة الماء من البئر نهاية السهل..

بعد أن عادوا من الخارج، وجلسوا على الطاولة، تحت شجرة الياسمين، ليحتسوا القهوة ذات الرائحة الزكية مع الخبز الطازج الخارج من الفرن التقليدي، فأصبح البيت منتشيًا بسببهما وبعد أن انتهوا من الفطور بادرت الأم بمهامها الأخرى من تنظيف وطهي، وانطلق الأب في سبيله وعند فتحه للباب سألته زوجته:

-أين أنت ذاهب اليوم يا أحمد؟

التفت إليها أحمد وقال:

-اليوم هو السبت، أنا ذاهب للسوق هل نسيتي؟

قالت وهي متفاجئة:

-اااه لقد نسيت تماما أنَّه السبت، عليَّ الذهاب إلى الضريح كذلك..

-حسنا اذهبي ولا تتأخري..

-لا تقلق لن أتأخر..

خرج الوالد وعلى رأسه قبعة المظل المتعددة الألوان وممسكًا بعكازه، انطلق يمشي بخطى متثاقلة حتَّى اختفى كالسراب، أمَّا الأم فور انتهائها من أعمالها نادت سليمان الَّذي كان خارجًا يراقب الدجاج والبط وغيَّرت له ملابسه فألبسته عباءة بيضاء ووضعت على رأسه عمامة بنفس اللون، أصبح ملاكًا تنقصه الأجنحة فقط، بعينيه الزرقاوتين ووجنتيه الَّتي صُبِغَت بحمرة الورود، فَفُتِنَت السماء بجماله وغارت الشمس من بهائه..

التقت عيناهما؛ فقالت له:

-أنتَ العوض الَّذي أردته، لولاك لما استطعت البقاء على قيد الحياة..

ثمَّ وضعت قبلة حارة على جبهته وأكملت قولها:

-هيَّا فلنذهب..

قال لها مستغربًا:

-أين سنذهب؟

-سنذهب إلى مكان مقدس لم تذهب إليه يومًا، لكن اليوم قررت أخذكَ معي كي تتعرف عليه..

-هل هو المسجد؟

-لا، بل شيء أفضل..

استغرب الابن من كلامها وقال لها:

-هل يوجد ما هو أقدس من المسجد..

-نعم..

أصبحت داخل رأسه علامات استفهام كثيرة وتعجب من كلامها وعندما أراد الكلام قاطعته قائلة:

-هيَّا كي نصل باكرًا..

وضعت الكساء فوقها فلم يظهر من وجهها إلَّا عين واحدة، أمسكت بيده وانطلقا يمشيان وسط طريق وعرة، ترابية بها الحجارة وآثار المواشي، على جانبيها أشجار الزيتون تتعانق أغصانها مصدرة أوراقها وشوشة حريرية؛ بعد نصف ساعة من السير وطأت قدم الأم وابنها ساحة الضريح، حركت وجهها كي ترى إن كان أحد الرجال هناك فلم تجد أحدًا، قامت بإبعاد الكساء عن وجهها فشعرت بقشعريرة تحرَّكت من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها واتسعت حدقتاها الزرقاوتين فقد وصلت إلى المكان الَّذي يهواه قلبها؛ مرَّت من الباب المقوس ودخلت داخل القبة الخضراء الَّتي يوجد بها الضريح، كان مغطى بقماش أسود ومطرز باللون الذهبي، غرفته مظلمة وباردة بها نافذة صغيرة زجاجها مقسم إلى مربعات كل مربع بلون مختلف..

سألها سليمان:

-ما هذا المكان وماذا نفعل هنا؟

-هذا ضريح الوالي سيدي سليمان، هنا يسمع إلى ما نريد ويكلم الله عنا فيحقق لنا أمنياتنا، بسببه نحن...

قاطعها قائلًا:

-هل تعين ما تقولينه يا أمي؟

-نعم يا بني، لولاه لما كنت أنتَ لدي الآن، لقد توفي إخوتك الأكبر منك ووهبت نفسي لهذا الوالي كي يحافظ الله عليك..

-هذا شرك بالله، هذا كلام غير منطقي..

-لا، بل هو حقيقي، هيَّا اتبعني ودر معي حول الضريح سبع مرات..

-لا، لن أفعل، أنا ذاهب للخارج..

رمقته بغضب وشدَّت على ذراعه بقسوة مجبرة إياه على اتباعها؛ بدأت بالدوران حول الضريح معه وعندما أكملت دوراتها وضعت جبهتها ويداها على الضريح وهي تتمتم بكلام غير مفهوم؛ لم يستطع سليمان البقاء هناك أكثر فقد أحسَّ بالاختناق، انقبض صدره وتنملت يداه؛ خرج بصعوبة وهو يترنح يمينا وشمالا حتَّى وصل إلى عتبة الباب المقوس وتنفس الصعداء، أمَّا الأم فقد اشتدَّ غضبها عندما رفعت رأسها ولم تجد ابنها معها؛ خرجت مسرعة إليه وشدته من أذنه مؤنبة إياه وهي تقول:

- يا ولد، هل تعلم أنَّه بفعلتك هذه ستحل علينا اللعنة والمصائب!

قال لها:

- لماذا؟ أنا لم أفعل شيئا!

-بلى لقد فعلت، هذا الوالي محبب إلى الله وإن غضب منا سيغضب الله منا..

-لا لن يغضب منا، كما أنَّ كلامك غير منطقي يا أمي، هذا الوالي ما هو إلَّا عبد مثلنا.. الإمام أخبرنا أنَّ الله يستمع إلى قلوبنا..

ضربت وجهه بكفها وقالت له:

-أهذا ما علَّمك إياه الإمام؟ علمك أن لا تحترم الوالي؟ علَّمك أن تنسى أصولك وعاداتك؟

-هذه العادات هي الخرافات بعينها، الله هو المجيب للدعوات وهو الَّذي يسمعنا ولا نحتاج إلى واسطة بيننا..

أغلقت له فمه بيدها اليمنى كي تمنعه من الكلام، أدخلت أظافر يدها الشمال في ذراعه مسببة له ألمًا حارقًا، قالت له وهي ترتعد خوفًا:

-اصمت، ستسبب لنا المشاكل..

نزع يدها بقوة وقال:

-أنا لم أحب هذا الضريح ولن أدخل إليه مجددا، أنا أعبد الله فقط..

ضربته مرة ثانية على وجهه فسقطت عمامته على الأرض واحمر خده وقالت له:

-ستصبح خادمًا للضريح..

ردَّ عليها:

-لن أهب نفسي إليه ولن أعود هنا ثانية..

-هل تتحدى الوالي؟

-لا أتحدى أي شخص، أنا فقط أعلم أنَّ الله بيده كل شيء..

ثم ذهب يجري في السهول وتركها لوحدها هناك، نادته إلَّا أنَّه أبى الرجوع إليها..

طرق سليمان باب بيت الإمام واخبره بما حدث له، فقال له الإمام:

-يا بني، لقد غُرس في أذهان الكثير من قريتنا هذه الأقوال، بما أنك ابنها فعليك أن تنزع عن رأسها هذه الأفكار، تكلم لها عن الدين السوي وأنا على يقين أنك ستستطيع إظهار الحقيقة لها بإذن الله، ربما ستأخذ وقتا طويلا، لكن لا تتعب ولا تتركها هكذا..

-شكرا لك يا شيخي..

-وفقك الله لما يحب ويرضى..

رسالة في زمن الكورونا

كانت داخل غرفة، جدرانها تئن ليل نهار، أعمدتها خائرة القوى ومنهكة، ممدة على فراش الموت لا يدخل إليها سوى الأطباء أو الممرضون في أوقات محددة..

انهمرت دموعها مارة على خدها مشكلةً وُديان وأنهارًا في نهاية المطاف، كانت يداها المجعَّدتان والبارزة فيهما عروق خضراء في آن واحد ترتجف..

نظرت في ساعة الحائط الدائرية، المقابلة لها ذات العقارب السوداء والخلفية بوجهها الأصفر الضاحك، جرعة أمل في مستشفيات بائسة، كانت كلما نظرت إلى ذلك الوجه الضاحك عزف قلبها لحن ضحكات عذبة..

فجأة اصطكت النافذة معلنةً حربًا داميةً، دخل هواء بارد تَصارع مع الستارة الشفافة لدقائق، فرفعها وحرَّكها..

أدارت وجهها نحو ذلك الشجار الَّذي شدَّ انتباهها وأحسَّت بجمرات من النيران الثلجية تلسع جسدها فقالت بنغمة حزن شديد وقد ظهر مع كلماتها ضوء البرق:

-الجو بارد والسماء ارتدت بذلتها الرمادية، ها هي تبكي بغزارة، أظنّ أنَّ همومها هي الأخرى قد ملأت الكأس وفاضت منه، وصبرها وصل إلى الحد الأقصى، على الرغم من كل شيء أعشق رائحة التراب المبلل بزخات

المطر، كم أحبها فهي تدخل إلى صدري معانقة كل خلية فيه، لقد اشتقت لهذا المنظر كثيرا..

صمتت هنيهة محاولةً التحرك لكن دون جدوى ثمَّ أردفت الكلام قائلةً:

-آه يا الهي! لم أقدر على النهوض كي أغلق النافذة أظنّ أنَّ المرض قد تغلب على جسدي.

تنهدت عميقا ثمَّ أعادت النظر نحو ساعة الحائط، كان الوقت يمر مملا، كئيبا؛ أصبحت الدقيقة بمثابة الساعة والساعة بمثابة يوم وترددت في أذنها دقاتها "تيك توك تيك توك تيك توك"، انتظرت حضور أحد ملائكتها كي يطمئنوا على حالتها ويتحدثوا معها، كانوا الوحيدين الّذين استطاعوا فهم ما يحدث بداخلها من تلاطم الأمواج العالية الّتي تجتاحها، سمعت صوت طرقات متباعدة؛ التفتت يمينا ناحية الباب البني وقد شعرت براحة شديدة عندما دخل ممرضها، ضخم الجثة ولا تظهر من ملامحه سوى عيناه فقد كان يرتدي طاقمًا طبيًا أبيضًا، كمامة على فمه ونظَّارة وقائية..

لاحظ الثورة العميقة بداخل عينيها فاقترب منها وقال:

-كيف حالك اليوم أماه؟

تعانقت أصابع يديها المتعرقة وقالت:

-يعني، قليلا، الحمد لله على كل شيء..

-النافذة مفتوحة سأغلقها كي لا يشتدَّ عليك المرض..

-نعم ستفعل خيرا يا ولدي من فضلك..

تحرَّكت رجلاه ببطء، لإغلاقها ثمَّ أخذ منها عينات ليرى التطورات وعندما أكمل خطا نحو الباب وفتحه، أوقفته إحدى الممرضات لكن المريضة كانت أسرع منها وخاطبته قائلةً :

-عفوا يا بني لحظة، هل هناك أخبار عنه؟

التفت إليها ولم ينبس ببنت شفة بل اكتفى بتحريك رأسه نافيا..

طأطأت رأسها الَّذي شقت التجاعيد في وجهها طرقات، ثم قالت ولسانها يتحرك ويعلك طعم المرارة :

-عندي طلب يا ولدي..

-اطلبي يا أمي، اطلبي ما تشائين..

-أريد ترك رسالة له، هل يمكنك كتابتها لي إن كان لديك الوقت؟

-نعم، الآن فترة استراحتي ولن أجد أفضل من تلبية من كانت الجنان تحت أقدامهن، عفوا سأجلب ورقة وقلما فقط وسأعود..

أحضر الممرض الورقة والقلم ثمَّ جلس على الكرسي وقال :

-أنا مستعد للكتابة الآن، هيَّا ابدئي من فضلك..

رفعت المريضة عينيها نحو السقف، السارقة لسواد البن، المجعدة قليلا على الجانبين، أغمضتهما، أخذت نفسا عميقا، فتحتهما وقالت والغصة تطغى على بحة صوتها :

-أمَّا قبل، عَلَّمتك في الرياضيات أنَّه لا يوجد ما بعد المالانهاية، لكن حبي لك قد تخطاها وهي حالة شاذة، كنتَ مؤنسي وحبيبي، كنت بلسم الأمل في حياتي ووردة بعثت الروح في الأرض القاحلة، ألا يوجد وصف آخر كي أظهر مدى حبي لك؟ وإن وُجِد أخبرني عنه لأنني لم أستطع العثور عليه، ما يخالجني، ما يتداخل في صدري وما ينبض في أيسري كله مغمور بحبك يا ولدي..

أمَّا بعد، عندما أحسست بالحمى ذهبتُ لوحدي ولم أخبرك كي لا تقلق، فلم أرد إدخالك في الأمر فابتعدت عنك حماية لك، شككت في ذلك المرض وأول شيء قمت به الذهاب إلى المستشفى، أجريت التحاليل فكانت موجبة، لن تقدر على تصور مدى حزني لمفارقتك والابتعاد عنك، أنت حتَّى لا تجيد الطبخ لوحدك فكيف ستعيش؟ اتصلوا بك وقاموا يدعونك لإجراء التحاليل، وقد فرحت عندما علمت بأن النتائج خاصتك كانت سلبية، الحمد لله على سلامتك وعافيتك، لكنك لم تعد لزيارتي أبدا، تمنيت لو أستطيع رؤية عينيك الخضراء، تمنيت لو أستطيع شمَّ رائحتك وفرك شعرك، لماذا لم تأت عندي يا ولدي؟ هل أخطأت بحقك، هل أنت غاضب مني ؟ أنا أعيش أحلك أيام حياتي على الإطلاق، وحيدة أرى الموت كما لم أره من قبل، أصارع المرض كل يوم وأحتضر كل ثانية، أسمع خبر موت هذا وذاك وتأخذني الغفوة ليلا من شدة التعب دون رغبة مني في النوم وعندما يبزغ فجر يوم جديد أحمد الله، غير أنَّ النوبات الشديدة من الحمى الَّتي تأتيني تجعلني أتصبب عرقا فيحفر في وجهي

ممرات، ثم يشتد بي الألم والتعب وتتغير وتيرة تنفسي فينقبض صدري وينعقد لساني..

أربعة عشر يوما منذ خروجي من المنزل، منذ دخولي للمستشفى ولكن.. أين أنت؟ ماذا حدث لك؟ لِمَ لَمْ تظهر؟ ألا تشتاق إلي؟ ألم تعد تحبني؟ قد بلغتُ من الكبر عتيا واشتعل الرأس شيبا، أردتك أن تكون عكازي فهل أذنبت؟ أن تكون ذاكرتي وتكون حبل نجاتي، أن تكون سندي إذا ما سقطت أو تعثرت، أردتك أن تتحمل معي شظف الحياة فأين أنت يا ولدي؟ ألم تعدني بأنك ستبقى دائما بجانبي مهما حدث، أين أنت؟ اشتقت إليك..

صمت أطبق على قلبها بنكهة الفجيعة واللوعة.. ثمَّ أخيرا انفجرت عيناها، لم تتمالك نفسها، بكت حتَّى احمرت مدامعها..

قال الممرض بألم:

-هل أنهي الرسالة؟

حرَّكت العجوز رأسها لأعلى و أسفل مؤيدةً لكلامه..

قال الممرض برنة حزن:

-أمَّا قبل، حبك يجري هادرا في دمي كطوفان لا يلجم، حبي لكِ كعدد الكواكب والنجوم السابحة في الفضاء، كعدد حبيبات الرمال في الكون، كعدد أوراق الشجر، حبي لكِ وصل وتجاوز المالانهاية فقد علَمتِنِي الرياضيات لكنكِ لم تستطيعي تعليمي كيفية حساب قيمة حبك..

أمَّا بعد، لم يستطع قلبي البقاء بعيدا عنكِ، فبعدك يقطع أوصالي، أنا يا أمي جزء من جسدك من عقلك وروحك، كيف لي أن أتركك لوحدك والسقم جليسك وأنيسك؟ كيف لي التخلي عنك ساعة البأس؟

أماه المنزل بارد وموحش من دونك.. أماه المنزل بعدك في ناظري بلا نكهة، أصبحت الجدران والأثاث بالأبيض والأسود كأنَّ الحياة اعتزلتهم، يوم خرجتِ منه دون إخباري جن جنوني فلا طعم للأكل بلا لمساتك ولا طعم لحياتي بلا ضحكاتك، يا أمي عندما علمت مرضك تطوعت للدخول إلى المستشفى كي أساعد المرضى وتبقى عيناي عليكِ، ألم تستطيعي معرفة أعيني وأنتِ دائما ما تتغزلين بها؟ ألم تستطيعي استشعار صوتي الَّذي أحببته كلما تَلَوتُ لكِ القرآن؟ أنا هنا يا أمي بقربك وبمحاذاتك، أنا هنا يا شمعة حياتي يا قمرا في ظلامي، أنا هنا يا وطني الَّذي أعيش تحت ظله يا مضمدة جروحي، أنا هنا يا أمي أنا هو ابنك..

أسندت الوالدة ظهرها على الوسادة، وضعت يدها على فمها من شدة الدهشة، اختلطت كلماتها وتلعثمت، بلعت ريقها.. تنهدت كأَنَّما روحها تود الخلاص، ثمَّ أمسكت نفسها وقالت له تلومه على فعلته:

-لماذا؟ لماذا يا ولدي لم تخبرني؟ هل حقا هذا أنت جالس أمامي الآن بشحمك ولحمك؟ أريد معانقتك، أريد لمس وجهك، أريد تقبيلك لكن لن أستطيع فعل ذلك..

ارتجف صوته وقال:

-سامحيني أرجوك، كنت أنانيا بفعلتي هذه، فكرت في نفسي وفي عدم تحملي لبقائي وحيدا، لمدة أسبوعين رأيتكِ ودخلت لغرفتكِ مرارًا و تكرارًا كي يطمئن قلبي، أمي ستشفين وسأقبّلك على جبينك كما لم أُقبِّلْكِ يوما، ستشفين وأعانقك كما لم أعانقك يوما، أمي تحملي واصبري كي نخرج معا، تتشابك أصابعنا عازفة للحن الشفاء، لا تستسلمي فأنا أريد أن ألبي نداء الحج إلى بيت الله الحرام بمعيتك ونزع الذنوب الّتي أثقلت كاهلنا، أريد أن أروي عظامنا بماء زمزم، أريد الرجوع مثلما ولدتني أول مرة، صفحة خالية من الأخطاء، فهلا تشجعتي من أجلي.. لا أريد البقاء بعدك وحيدا..

دمعة قهر

مصنع تصدير التمر بولاية بِسْكَرَةٌ، لم يعمل به الكبار فقط، بل كان أصغر فرد منهم يبلغ من العمر إثنى عشرة مقبرة من الحزن والقهر، كل ما عاشه ذلك الطفل المسمى عُقْبَة لم يكن فرحًا ولا نجاحًا، بل سُقوطًا وتدهورًا، إلَّا أنَّه ما زال ولحد الآن واقفًا على رجليه، طفل ليس كأي طفل، بل هو رجل تسري في عروقه العزيمة بدل الدماء، في حين كان أقرانه يلهثون وراء ملذاتهم المتعددة، كان هو متلهفًا لشراء دواء الضغط لأمه وتحصيل بعض الدنانير من أجل قطعة خبز وكأس لبن في منزل تعاني جدرانه من صقيع الشتاء ومتصدعًا من الخيباتِ والهزاتِ..

في السابع عشر من نوفمبر، استيقظ عُقْبَة باكرًا للعمل كعادته وانطلق مرتديًا سروالًا رثًّا، مرقعًا، وحذاءً لم يبق له الكثير من الوقت لتحتضنه القمامة، أدخل رأسه في ياقة معطفه البني المتسخ كي لا تألمه أذناه من البرد، كان متحملًا لكل الصعاب بغية دراهم معدودات؛ مرَّ على فتية ذاهبين للمدرسة، مرتدين أفخم الثياب ويحملون أجمل الحقائب، رأوه وانطلقت الضحكات من أفواههم ساخرين منه؛ فقال أحدهم:

- إنَّه عُقْبَة، لقد توقف عن الدراسة، أليس كذلك؟

ردَّ عليه صاحبه بصوت مرتفع:

- نعم، هو أصلًا لم يكن مداومًا عليها، لقد كان كثير الغياب ..

-آه تذكرت، لقد هجرهم والده منذ مدة فلم يجد من يتكفل بهم..

-همم، لهذا السبب هو يعمل الآن، انظر إلى ثيابه إنَّها القذارة بعينها!

- نعم، رأيت، دعنا منه ولنذهب لبدأ يومنا، أخبرني هل حَضَّرت الواجب؟

-بالتأكيد! أحب تحصيل أفضل النقاط، لا أريد البقاء في الشارع كعُقْبَة..

ضَحِكَا وأكملا طريقهما تاركين تلك الكلمات الَّتي اخترقت صدره كخنجر حاد؛ لم ينزف، لم يبكي فقد جَفَّت مدامعه، كل ما في الأمر أنَّه أراد الصراخ، فَكَّرَ بمشاجرتهم لكنه لم يستطع القيام بأي شيء وتابع سيره متناسيا الأمر..

ضربت أذيال الرياح الشمالية وجنتيه الحمراوتين، عانى بسببها كثيرا فقد وجد صعوبة في التنفس، وفي حين مصارعته لها سمع صوت نباح قادم نحوه بسرعة؛ التفت وراءه فلمح كلبًا ضخمًا يقترب منه، مزمجرًا عن أنيابه ولعابه يسيل على جانبي فمه، أحسَّ عُقْبَة بالخطر يترصد به فانطلق يعدو بكل ما أوتي من قوة حتَّى وصل إلى مكان عمله..

ظنَّ أنَّه وصل إلى بر الأمان، لكن ما إن لامست قدمه باب المصنع حتَّى بدأت المشاكل معه من جديد مع مسؤول ذلك الفرع؛ سمير ذو الأربعين سنة، معروف بتجبره، يقلل من كل شخص أدنى مرتبة منه، كأنَّه مَلِك والعاملون عبيد عنده، ينصاعون لأوامره ويتقبلون ذله لهم حفاظًا لمكسب قُوتِهِم ودَخْلِ عائلاتهم..

ذلك اليوم، كان يومًا قاتمًا على عُقْبَة، أراد سمير تعجيز الطفل الصغير ليتمتع بملامحه الَّتي تَرسُمُ فقدان الأمل؛ غيَّر من توقيت ساعته، كانت الثامنة إلَّا ربع؛ فجعلها الثامنة تمامًا، ثمَّ اقترب منه صارخًا:

- أيّها الحقير، لقد تأخرت، أَلَمْ أقل أنَّ الدخول إلى المصنع على الساعة الثامنة إلَّا ربع؟ هاااه أجبني..

ردَّ عليه عُقْبَة مطأطأ الرأس متلعثمًا:

-لكنها الثامنة إلَّا ربع يا سيدي..

- هذا يعني أنّني كاذب!

- لا، الأمر ليس هكذا يا سيدي، لكنني والله قد قدمت باكرا..

- انظر إلى الساعة على يدي، هل تريد أن أطردك! لن تجد مكانًا آخر تكسب منه المال، هل تريد موت أمك بالضغط! هل تريد أن تموت جوعًا..

ارتجف صوته وقال:

- لا يا سيدي..

إذن اذهب ولا تتأخر ثانية، لديك عمل كثير؛ أولا احمل تلك العلب هناك في الزاوية، يوجد حوالي مئة علبة، أريدها أن تكون خارجًا بعد نصف ساعة..

تفاجأ الطفل مما قاله ورَدَّ مذعورا:

- لكنها ثقيلة وكثيرة، أنا يا سيدي أقوم بعملية التعليب والتوضيب، أمَّا الحمل فهناك آلة خاصة به..

-آاااها أيها الحقير، أراك أصبحت الآن صاحب الفرع وها قد بدأت تعطيني دروسا!

حرَّك يديه نافيًا الأمر وقطرة العرق نازلة من جبهته، كان قلبه مضطربا، أراد تكسير أضلعه؛ استنشق الهواء محاولًا تمالك نفسه فقد شارف على البكاء، وقال:

- الأمر ليس هكذا يا سيدي!

- أتريد الطرد؟

اغرورقت عيناه العسليتان بالدموع وقال:

- سأفعل، سأفعل، لا تطردني أرجوك!

وضع سمير كرسيًا في الوسط وأشعل سيجارته واضعًا رجلًا فوق الأخرى وهو يتلذذ بتعذيب المسكين.. أمَّا عُقْبَة، فلم يجد حلًا آخر سوى جره لتلك العلب إلى الخارج؛ تصبب عرقًا، ونال التعب منه وكلما مرَّ بسمير نفث عليه دخانه.

أخرج عُقْبَة خمس علب فقط وعندما أراد إخراج السادسة أوقفه سمير قائلًا:

-قِفْ عندك! انتهى الوقت المحدد، أنتَ مطرود..

أسرع عُقْبَة نحوه يترجاه:

- أرجوك سيدي، أمي مريضة وعَلَيَّ شراء الدواء لها..

- لا، كان عليك الإسراع ..

-إعطني فرصة أخيرة سيدي..

أشعل سمير سيجارة أخرى ونفث دخانها على وجه عُقْبَة، أدخل يده اليسرى في جيب سرواله الكلاسيكي، حرَّك يده اليمنى الحاملة للسيجارة بطريقة دائرية بالقرب من عين الطفل وقال:

- هممم، حسنا تابع العمل إذن..

عاد عُقْبَة مجددًا لإخراج العلب، علبة علبة حتَّى انهارت قواه وسقط أرضًا، لم يقو على القيام، أمَّا العاملون فقد خافوا على أنفسهم من سمير فلم يجرؤوا على مساعدته..

ضحك سمير بهستيريا حتَّى بانت أضراسه ومشى نحوه؛ فكَّر المتغطرس بإذلال الطفل أكثر فركله على بطنه وقال:

-هذه البطن فارغة، منذ متَّى لم تأكل؟ نحن لا نريد الضعفاء..

بَزَقَ عليه وركله مرة أخرى وقال:

-اذهب، لا أريد جروًا ضالًا..

سعل عُقْبَة بشدة وحاول القيام لكن من دون جدوى..

انطلق صوت تصفيق من الأعلى فرفع كل من كان هناك رأسه ليرو صاحب التصفيق؛ كان مدير المصنع في الطابق الأول!

كل ما حدث كان تحت نظره ولم ينتبه لوجوده أحد..

لم يُصَدِقْ الأمر فقد اعتقد أنَّه حلم، تلك اللقطة أعادت له ذكرياته السابقة عندما كان صغيرًا يبيع الخضار، حمَّالا ومنظفًا كي يكسب أجرًا يغنيه عن السرقة، تذكر كيف عانى من الذل والاحتقار؛ تنملت يداه وظهرت عروق وجهه ورقبته، كانت صدمة له أن يجد شخصًا يعامل العمال هكذا، توقف عن التفكير وصرخ مناديًا لسمير، فُتِحَت عينا هذا الأخير على أوجهما وبلع ريقه كشوكة عالقة في حلقه وصعد إليه وهو يرتجف..

-أنتَ مطرود..

كلمتان قالهما مدير المصنع لسمير، جعلت الأرض تدور به، ذلك الفظ الغليظ لم يتوقع يومًا أن يسمع هذا الكلام..

قال سمير متلعثمًا:

-أهلا سيدي

- أنتَ مطرود

-كيف حالك؟

-أنتَ مطرود

-العمل جيد اليوم سيدي..

- إن لم تخرج الآن سيأتي الحرس لإخراجك مذلولا..

ارتبك سمير وقال:

- دعني أشرح لك، هذا الفتى كان متخاذلا وأردته صلبًا..

لم يستمع إليه مدير المصنع واتجه صوْبَ عُقْبَة كي يطمئن عليه، مدَّ له يده لمساعدته على القيام وقال له بصوت شجي:

- اعذرني يا ولدي، لقد رَأَيتُ ما حدث ولم أعلم بوجود أمثاله في مصنعي..

تكلم عُقْبَة بصعوبة:

- شكرا لكَ سيدي..

-هل تتألم يا ولدي؟

لم يُرِدْ الإفصاح عمَّا يشعر به، اكتفى بطأطأة رأسه فقط..

- هل لكَ أن تدلني على بيتك؟

احتار الصغير وقال:

- هل لي أن أعرف السبب يا سيدي؟

- أريد التكفل بكَ، لقد كُنتُ مثلك يومًا لكن الله أرسل لي يدًا انتشلتني من غياباتِ الجُب، أريد أن أصبح اليد الَّتي تنتشلك..

لمعت عيناه من الفرح وارتمى إلى حضن صاحب المصنع قائلًا:

-حفظك الله يا سيدي..

روح بين طرفين

وجدت نفسها واقفة، متصلبة البدن وتلامس وجهها نسمات حريرية؛ رائحة مألوفة دغدغت لها انفها، لم تعرف ماهيتها ولم تتذكر اسمها، حاولت التعرف عليها لكنها لم تستطع فأصبحت الغصة تلعب في حلقها، وشعرت بكتلة متكوّمة وسط صدرها؛ أثقلت لها تنفسها، كانت تشعر بذلك الإحساس عندما تعرف شيئا ثمَّ تنساه وتحاول بشدَّة تذكره، إلَّا أنَّك لا تستطيع ذلك؛ نست أمر الرائحة وتذكَّرت أنَّها لم تفتح عينيها بعد؛ وراء جفونها المغلقة رأت احمرارا أجوريًا، عندما ركزت فيه جيدا استطاعت رؤية نقاط حمراء؛ ظنَّتها حبيبات رمل مصبوغة بالأحمر، عندما زادت من حدة تركيزها قالت في قرارة نفسها:

-إنَّه نمل، نعم، نمل داخل عيني.. كيف أفتح عيني؟ أظنّه يحاول قرص جفوني من الداخل، لا بل أظنّه يريد ثقب بؤبؤي والتسلل منه إلى عقلي، عليَّ أن أفتح عيني قبل وصوله إلى أعماق رأسي..

حاولت فتح عينيها لكنّها وجدت نفسها تفعل عكس ما تريد، أغلقتهما بقوة فتشكلت على سطحهما التجاعيد وسمعت أذنها دقات قلبها، تلك الدقات كانت على جفونها وليس في يسار صدرها..

أخذت نفسًا عميقًا، دخلت معه تلك الرائحة المألوفة ومجددًا لم تستطع التعرف عليها؛ أرخت جسدها بعدما كان متصلبًا وقالت:

-هيَّا حاولي فتح عينيك..

أبطَّأت من تنفسها، رفعت جفونها بقيد أُنمُلَة عن عينيها ثمَّ أعادت غلقهم، كرَّرت العملية مرة ثانية وثالثة أمَّا الأخيرة تحدَّت نفسها واستطاعت رفعها؛ رأت نورًا مصوبًا تجاهها، ودوائر شمس صغيرة على رموشها؛ ظهرت الصورة أمامها بشكل جيد وتذكرَّت اسم الرائحة فقد كانت واقفة على شاطئ البحر، قدماها مغروستان في الرمال والموج يرمي بزبده على تنورتها المخملية؛ أدارت رأسها يمينا وشمالا، كان الشاطئ فارغا لا أثر للحياة فيه سواها، وجدت نفسها هناك كأنَّها جاءت من العدم؛ حاولت تذكر كيف استطاعت الوصول إليه لكن بلا جدوى..

رمت نظرها بعيدًا، رأت الأمواج تتشاجر مع بعضها البعض كأنَّ كل واحدة تقول هذا مكاني اذهبي، كانت في حلبة مصارعة بلا جمهور وبلا حكم ينهي المباراة؛ بقيت هكذا واقترب الصراع إلى الشاطئ وارتفع مستوى الماء، ثمَّ لطمت الأمواج نفسها على الأرض مصدرة دويًا رعديًا شق الرمال إلى نصفين..

عادت الأمواج إلى الخلف وانطلق معها صوت عذب، صوت احتكاك حبيبات الرمل مع بعضها..

راقبت الفتاة ما يحدث للبحر بعينين عسليتين مفتوحتين على أوجهما وحاجباها السوداوان يرتجفان؛ امتلأ عقلها بالتساؤلات الكثيرة..

- كيف وَصلت إلى هنا؟ ماذا حدث لي من قبل؟ أين كُنتُ؟ من أنا؟ لماذا لا أستطيع الابتعاد عن الشاطئ؟

كل هذه التساؤلات شكلت حلقة داخل رأسها، وعلامة استفهام كبيرة لم تجد لها حلًا ولا جوابًا مقنعًا.. أَخَذَت نفسًا عميقًا دخلت معه رائحة الملح، أغمضت عينيها محاولةً استرجاع ماضيها لكن لم تستطع ذاكرتها الوصول إلى ما قبل فتحها لعينيها على هذا المنظر؛ ضربت رأسها بقبضتها اليمنى وانساقت دموعها المكبوتة على غمازتيها العميقتين..

شعرت كأنَّها لم تبك منذ زمن طويل، شعرت كأنَّ هذه الدموع كانت حبيسة قلبها لا عينيها؛ سال مخاطها واختلط بالدموع ولم يكن لديها أي منديل كي تمسح به أنفها، فمرَّرت كُمَّ ثوبها عليه؛ أحسَّت بالاشمئزاز وعادت إلى ما قبل خمس وعشرين سنة بالزمن..

انتقلت رعشة خفيفة من رأسها إلى أخمص قدميها، تنملت يداها وأحسَّت بلدغات الدبور على كفيها.. رأت شريط إحدى اللقطات الَّتي عاشتها في طفولتها، كانت واقفة على الرمال تراقب البحر، تحاول الدخول إليه، لكنّها لم تقدر فقد عانت من رهاب البحر وبكت وسال مخاط أنفها ولم تجد منديلًا تمسحه به فمرَّرت كُمَّ ثوبها عليه، هذه اللحظة كانت كفيلة لتشرح لها سبب عدم مقدرتها على التحرك وفي خضم ذلك التفكير سمعت صوت صراخ نسائي حاد مجروح يطلب المساعدة، التفت رأسها وحرَّكت عينيها على الشاطئ محاولةً إيجاد صاحبة الصوت، ركزت جيدا في منتصف البحر، أصبحت عيناها حادتين نصف مغلقتين، فإذ بها ترى رأسًا تبتلعه وتتقيأه الأمواج، لم تقدر على تحريك رجليها فقد تصلبتا كقطعة فولاذ، ضربتهما بيديها لعلها تكسر ذلك التصلب لكن من دون جدوى، تركت جفونها تنسدل على عينيها فظهرت أمامها لقطة فيلم أخرى

عن حياتها، وجدت نفسها تشارك في إحدى مسابقات السباحة، اخترق جسدها الماء وتحركت داخله كراقصة باليه، أصبحت سمكة رشيقة وطائرًا حرًا يحلق في السماء لا يمسكه أي شيء..

قالت في قرارة نفسها:

- سأحاول أن أصبح سمكةً رشيقةً في البحر أيضًا..

رفعت رجلها اليمنى؛ حركتها ببطء إلى الأمام ثمَّ أتبعتها باليسرى، خطوة، خطوتان، ثلاث خطوات ووجدت نفسها تغوص بطريقة انسيابية، لم تكن السباحة سهلة لها فالتيارات جذبتها إلى الأسفل وقيَّدت قدميها لكن الفتاة رفضت الانصياع لها وفكَّت قيود رجليها مندفعة إلى الصوت النسائي؛ ضربت الأمواج من أجل الوصول إلى غايتها، وعندما وصلت فتحت عينيها على أوجهما حتَّى كادتا تخرجان من مقلتيهما، لم تصدق ما تراه أمامها..

الصوت النسائي ما هو إلَّا عجوز شمطاء ذات خانة كبيرة على أنفها تخرج منها شعرتان، على وجهها ابتسامة حادة ظهرت منها أسنانها السوداء، تبرز على يديها المجعدتين عظامها، ذيلها الملتصق بها يشق مياه البحر كسيف، لقد كانت حورية بحر!

قالت الفتاة بصوت متذبذب:

-انهضي من هذا الكابوس المزعج، هيَّا انهضي..

ضحكت العجوز وخرجت من فمها رائحة كريهة ثمَّ قالت:

-أريد قلبك، أريد أكل قلبك كي أستطيع العيش لمدة أطول، هكذا تقول الأسطورة، أكل قلب فتاة شابة يزيد في عمر الحوريات..

بلعت الفتاة ريقها واختلطت عليها الأمور، من جهة التيارات تجذبها إلى الأسفل ومن جهة أخرى هذه العجوز الشمطاء، لم تستطع فهم الوضع الّذي هي فيه، كان بؤبؤها يرتجف وجفونها لم ترد الانغلاق من الصدمة..

قالت:

-انهضي من هذا الكابوس..

-لا يا عزيزتي، سآخذ قلبك فكما ترين لقد كَبِرتُ ولا أريد الموت، لذلك أعطيني قلبك الجميل..

حرّكت العجوز الشمطاء ذراعها اليمنى إلى الخلف ثمَّ أدخلتها في صدر الفتاة فاخترقت أضلعها، أمسكت قلبها، ضغطت عليه وهي تقهقه ثمَّ نزعته بخفة..

في تلك اللحظات، اسودَّ كل شيء في عيني الفتاة، تباطأ تنفسها وتنمل وجهها، من دون وعي منها شهقت وانتفض جسدها؛ سمعت صوت صدى يناديها من بعيد يحاول جذبها إليه ولفت انتباهها..

ركزت أذنيها على ذلك الصوت..

كان صوت رجل يقول:

-لقد استطعنا بفضل الله إنقاذ الفتاة من الموت وعاد نبض قلبها مستقرًا من جديد، صعقة الإنعاش قد أعادتها لنا..

قالت الفتاة لنفسها:

-إذن أنا هنا، لم أخسر قلبي، بل قاموا باستعادته لي..

طيف الأم الهامس

تردَّد على أذن الممر الَّذي يمشيان عليه صوت خطواتهم، أمسك بيده اليمنى الخشنة يدها اليسرى الصغيرة، وراقب حركة رجليها ولم يبعد عيناه عن الأرض لخوفه على ملاكه من التعثر، خاف عليها من أن تسقط وتجرح ركبتيها، فتنزف دموع الألم مع دمها ولن يستطيع تحمل آلامها، فمع كل دمعة تتقطَّع أوصاله، لم يكن الزمن يعني له شيئًا أمام ابتسامتها الوردية، لم يرد شيئًا سوى رؤية ملامحها الملائكية، لكن فجأة توقف كل شيء وسُلبت من شفتيها الابتسامة، كأنَّ شيئًا دخل إلى عقلها وخرَّب لها أفكارها، لكنه كان شيئًا حثَّها على البحث عن الحقيقة؛ تسمَّرت مكانها؛ ذَبُلَت عيناها وتبللت جفونها، نزعت الابنة يدها من يد أبيها، حاولت النطق لكن الكلمات هربت منها، أحسَّت بشيء يخنقها فحرَّكت يديها في الهواء ثمَّ انطلقت تلك الكلمة من فمها بعد عناء شديد وحرب ضامرة بينها وبين نفسها، كانت رصاصة رماها جندي على عدوه، فأحدثت صدعًا في أضلعه ودمرت كل خلية داخل قلبه، كانت تلك الكلمة صغيرة الحجم لكنَّها أحدثت اضطرابا في نفسية والدها..

-ماما..

تجمدت عروق الأب وانتفض من مكانه وأرادت روحه الهرب من جسده، بلع ريقه وأحسَّ أنَّ يداه تمسكان بصبَّار، جفَّت شفتاه فأصبحتا أرضًا جرداء مشققة؛ أراد أن يهدّئ من روعه، فأخذ شهيقًا وزفيرًا عميقين كي يدبَّ في عروقه الدم مرَّة أخرى، رسم على لوحة وجهه الروسية ابتسامة

أظهرت اصطفاف أسنانه البيضاء، ركع على ركبتيه ورفع ذقن ابنته قليلًا؛ ما إن التقت عيناهما حتَّى توقف كل شيء؛ لم تعد الأرض تدور ولم تعد عقارب ساعته المشيرة إلى السادسة مساءً تتحرك، حلَّق في سماء عينيها الزرقاء كنسر حرّ، شرد فيهما حتَّى سمعت أذناه تلك الكلمة مجددًا، لاطمةً إياه بصفعة على وجهه، جعلته يستفيق

-ماما..

مرَّر أنامله بلطف على وجهها ومسح دموعها، خفض صوته وقال:

-ما بكِ بوفارديا؟ هل حدث لكِ شيء أزعجك؟

أعادت تلك الكلمة مجددًا بصوت مرتجف..

-ماما..

قال وكأنَّ خنجرا غُرِزَ فيه:

-أنا هنا بوفارديا، هيَّا، سأحملك، هيَّا إلى حضني..

أراد ضمها لكنها أبعدت يديه وضربته في صدره ثمَّ علا صوتها وهي تنادي..

-ماما، ماما

أَخرج من جيب سترته مصاصة دائرية ملونة وقال:

-حسنًا بوفارديا، خذي هذه المصاصة يا حلوتي ولا تغضبي، هيَّا، هذه هي المصاصة الَّتي تحبينها أليس كذلك!

رمت المصاصة بعيدًا وجثت على ركبتيها، رافعةً رأسها إلى السماء تشهق وتنادي..

-ماما، ماما..

فتح يديه على وناداها بصوت خافت يتخلله الحنان:

-تعالي إلى والدك بوفارديا، هيَّا تعالي، هيَّا سأحملك وألعب معكِ..

لم تقترب منه بل نهضت وركضت إلى الأمام، تنادي أمها تاركةً إياه وراءها، فتبعها وما إن اقترب منها حتَّى هبَّت الرياح، محركةً لأشجار الصنوبر الجالسة بجانب بعضها البعض؛ احتكت أوراقها وتعانقت أغصانها مصدرةً صوت حفيف شدَّ انتباهها وحرَّك لها أذناها، التفتت الصغيرة تجاه المنظر فاتحةً لعينيها، ومن حيث لا تدري ظهر لها طيف امرأة ثلاثينية وصلت إلى ذروة أنوثتها، ترتدي فستانًا أبيضًا، منسدل عليه شعرها الحريري.. وضعت كفاها على وجه الصغيرة، لاطفت لها عيناها بأناملها ومسحت لها دموعها، عانقتها فتغلغل الدفء إلى ابنتها ولامس كل شريان فيها؛ سرت الحياة في جسدها وانتظمت دقات قلبها، فركت لها شعرها الأسود، ثمَّ همست لها في أذنها بصوت يشبه ترانيم كنيسة ألمانية..

-أنا هنا حبيبتي بوفارديا..

ابتسمت بوفارديا ثمَّ خرجت من ثغرها ضحكات جعلت عيناها مغمضتان وهي تقول:

-ماما.. ماما.. ماما.. ماما

-نعم حبيبتي أنا ماما، هذه أجمل كلمة أسمعها، أعيديها مجددا..

-ماما..

وضعت بوفارديا يداها الصغيرتان على وجه ذلك الطيف وتحسسته، كان ناعمًا، مبهجا كغزل البنات، تركت عليه قبلةً فتذوقت طعم حلاوته، أمسك طيف الأم يدي الطفلة ثمَّ وضعت جبهتها على جبهة الصغيرة وقالت:

-لا تبكِ مجددا بوفارديا فأنا معك.

-ماما ؟

-نعم حبيبتي؟

لم تجبها بوفارديا، بل اكتفت بلف يديها على عنق طيف أمها..

أبعدت الأم جبهتها ونظرت مباشرة في عيني ابنتها وأردفت القول:

-أحبك بوفارديا، هيَّا قولي لي أحبك..

تلعثمت الصغيرة وحاولت بشدة قولها..

-أأ..

-أحبك

-أأحح..

-أحبك

-أأححبب..

-أحبك

-أأحببك

-هاه، جيد هذه هي ابنتي..

اقترب الأب من بوفارديا؛ حاول رؤية ما تراه ابنته لكنه لم يستطع، حاول لمس ما تلمسه ابنته لكنه لم يستطع، حاول سماع ما تسمعه ابنته لكنه لم يستطع، جثا وضرب الأرض بقبضتي يديه، فنزف دمًا سقى شقوق الأرض الصغيرة وقال وهو يشهق:

-إيما إيما، لماذا تركتنا يا إيما؟ إنَّها تحتاجكِ، تريدكِ، تبحث عنكِ، لن تستطيع الاكتفاء بحناني بل تريد حنانك أيضا..

أدرات إيما وجهها نحوه ورأت ما يحدث له، شعرت أنَّ قلبها يغرز بآلاف الإبر، تمنت لو مازالت بجانبه، تتكلم معه، تغازله، تضحكه، تحمل معه هموم الحياة؛ ذبلت ملامح وجهها وتنفست الصعداء، أبعدت الشعر عن ناصية بوفارديا وقبَّلتها وسط جبهتها ثمَّ لمست لها أنفها بسبابتها مداعبةً لها وقالت:

-أنا معكِ بوفارديا، لا تخافي، ستجيدينني بجانبكِ دائما، هيَّا اذهبي إلى والدك الآن..

أطلقت ضحكتها وقالت:

-ماما أأحببك..

-أنا كذلك يا وردة حياتي.

التفتت بوفارديا نحو أبيها ومشت إليه مبتسمة وتظهر من فمها أسنانها الصغيرة، أمسكت بقبضته وقالت:

-ماما.. أأحببك

نظر إليها وعيناه مغرورقتان بالدموع

تحسست وجهه فأمسك يديها وقبّلهما ثم قال:

-إيما، لقد تحدثتِ معها، شكرا لكِ حبيبتي..

وفي غمرة فرحه بدأت تظهر له صورة ذلك الطيف من أسفل قدميها شيئا فشيئا حتّى ظهر له وجهها، لم يصدق ما تراه عيناه، أحسَّ نفسه في حلم جميل لا يريد الاستيقاظ منه، اقترب طيف زوجته منه بخطى متثاقلة، كانت على وجهها ابتسامة بريئة، فتحت يديها وقالت له:

-هيَّا تعال يا حبيبي، أنا هنا، لم أترككم لوحدكم ولن أترككم أبدا..

بلا أي تفكير منه تحرّكت قدماه نحوها وعانقها قائلًا:

-اشتقنا إليكِ كثيرا يا إيما..

-أنا كذلك اشتقت لكم، لكن لا تقلق فأنا دائما بجواركم..

-هل تعلمين أنّني أشفق على بوفارديا كثيرا؟ دائما ما أجدها ترى الأطفال مع أمهاتهم وهي لا، فتحزن..

-لا تقلق، لن ترى الحزن في عينيها مجددًا، انظر إليها الآن..

-أعدكِ أنني سأفعل كل شيء من أجل أن تبقى هذه الضحكة على وجهها..

ربتت على كتفيه تربيتًا دافئًا وقالت:

-أنا أثق بك وأعلم جيدا أنك ستهتم بها..

قاطع حديثهما صوت تصفيق طفولي، التفتوا ناحيته فوجدوا بوفارديا ضاحكة وتقول:

-ماما.. بابا.. أأحببك..

-هاه، انظر لقد تعلمت كلمتان جديدتان..

-أنا أرى ذلك، عليكِ أن تعلميها كلمات أخرى كذلك..

-نعم، هذا ما سأفعله في الأيام القادمة..

-شكرا لكِ عزيزتي..

-هيَّا اذهبا وتابعا نزهتكما..

-ألن تذهبي معنا؟

-بالتأكيد سأمسك بيدها ونمشي مع بعض كأي أسرة سعيدة..

على حافة مستنقع الدم

بعد مرور أسبوع من ارتدائها لذلك الثوب الحريري، وسماعها لزغاريد النساء، ها هي الآن تجلس منكبة على أحزانها تشهق بصمت؛ إن تكلم معها أحد لا تجيب، وإن طرقوا الباب لا تفتح، تجلس داخل غرفتها الرمادية بعدما كانت مصبوغة بالألوان الزاهية؛ سقط شعرها المصفف على كتفيها، كما أنَّها نتفت منه البعض ورمته على الأرضية، أمَّا عن زخات عينيها فقد شكلت سيلًا من الكحل يمرّ على خديها، لم يعد يثير انتباهها أي شيء، كل ما تفعله حساب الوقت، فإن مرَّت ساعة تقوم بالنقش على الجدران كالمسجونين عندما يَعُدّونَ دقائق بقائهم؛ لقد كانت تعد ساعات إخلافه لوعده، بعده عنها، تحطيمه لها وتهشيمه لقلبها، لم يستطع ظلام الليل تجاوز قتامة وسواد حياتها الَّتي أصبحت عليها الآن، لم يعد للشمس وهج يضيء لها قلبها، ولا للقمر نور يدخل إلى صدرها، جحظت مقلتاها وبرزت العظام على وجهها ويديها، أمَّا الباقي فقد كان مغطَّى بثوبها؛ صامت عن الأكل ولم ترتشف سوى قطرات من الماء، هي الآن حبيسة كآبتها، تحيط بها قضبان تعاستها..

جلست القرفصاء وقالت:

-إنّي ليحزنني فراقك عني، أخبرني أين أنتَ ولِمَ اختفيت عن الأنظار؟ هل فعلت لكَ شيئًا يؤذيك؟ هل حدث لكَ مكروه؟ هل أنتَ مريض؟ أين عائلتك؟ ألم تخبرني أنهم سيأتون؟ لم يظهر لهم أي أثر؟ اتصلنا بهم فوجدنا الرقم مغلق، قل لي مالذي حدث؟ بحثنا عنهم فقالوا أنهم قد

ذهبوا.. لماذا تغير كل شيء فجأة؟ هل كرهتني؟ لمَ لم تأت يوم زفافنا؟ لم أجد جوابًا مقنعًا؟ أخالني في كابوس، حاولت الاستيقاظ منه مرارًا لكنني لم أستطع، أتعلم أنني لا أدخل لقمة لفمي، أدور حول نفسي كمريض عقلي، أقضم أظافري وأعض يدي، أصرخ حتَّى يبح صوتي، لقد انتظرتك حتَّى كره الانتظار مني..

مرَّت الدقائق والساعات وهي على هذه الوضعية؛ أسدل الليل ستائره ومازالت تنتظره بشغف، سمعت صوت سيارة مارة، ففتحت عينيها وانتفضت روحها كمن بها بمس، ذهبت مسرعة نحو النافذة كي تراه، راسمةً على وجهها ابتسامةً بريئةً بشفتيها المشققتان، لكنها لم تجد شيئا..

ندبت حضها التعيس، لطمت وجهها بصفعات قارصة، ضربت رأسها على الحائط وصاحت قائلة:

-أين أنتَ؟ لماذا؟ لماذا يحدث هذا الشيء لي؟ لماذا أنا بالذات؟ يا الهي أخبرني ماذا فعلت كي تعاملني هكذا؟ يا الهي ما الخطيئة الَّتي ارتكبتها؟ هل أستحق هذا الظلم؟ هل أستحق هذا البلاء؟

ومع تلك الكلمات الَّتي قالتها تركت جسدها يهوي وانكمشت على نفسها.. مسندة رأسها على الجدار، تبكي بلا دموع فقد جفت مدامعها، فتحت فمها محاولة الصراخ لكن الصوت قد قطع ولم يخرج من حنجرتها المتألمة، تنفست بوتيرة سريعة حتَّى تعبت رئتاها وخارت قواها، بلعت ريقها وتركت جفونها تغلق ببطء..

هواء بارد دخل غرفتها، داعبها ملامسا لوجهها، وضوء الإنارة سلط نوره عليها، أدارت وجهها يمينا وشمالا، مصدرة صوت تدمع منه العين..

قالت:

-لقد تدمرت حياتي، عرسي مر عليه أسبوع لكنني بلا عريس، لقد ذبلت، أريد معرفة السبب الذي جعلني في هذه الحالة..

سمعت طرقات على الباب، فلم تأبه لها ولم تُرِد التكلم فهي تعلم أنهم يريدون تأنيس وحدتها، لكن ذلك سيكون من دون جدوى، تزايدت الطرقات ولم تجب عليها فسمعت صوتًا حنونًا وراء الباب يقول:

-ابنتي فدوى، أرجوك احمدي الله، لن تصدقي ما سأقوله لكِ، لكن عليكِ أن تحاولي تصديقي..

أثارت تلك الكلمات في نفسية فدوى الحيرة ودفعتها للنطق..

-ما الذي حدث يا أمي؟ هل أُصِيبَ أحمد بمكروه!

-لا يا ابنتي، بل أنتِ من كان سيصيبك مكروه..

-أنا لا أفهمك يا أمي! ما الَّذي يجري؟

-سأقولها لكِ الآن لذلك أرجوكِ لا تفعلي لنفسك شيئًا وتماسكي؛ إنَّ أحمد، أبوه وأخوه يعملون مع الداعش..

قهقهت فدوى بهستيرية وقالت:

-باللّه عليكِ يا أمي، ما الذي تهذين به؟ هل جننتِ؟ إنَّ أحمد تاجر كما أنَّه يعمل هو وأخوه بمحل أبيه..

-لقد أظهروا صورهم على التلفاز الآن، عندما اتصلنا بهم كان الهاتف مغلقًا، عندما بحثنا عنهم لم نجدهم، كما أنَّ المحل لم يفتح منذ ذلك اليوم، لقد أراد أخذكِ معه وإدخالك معهم؛ لقد أراد تحطيم حياتك..

حرَّكت الابنة رأسها يمنة ويسرى نافية لكلام أمها وقالت:

-لا، لا،لا، ليس صحيحا..

-استمعي لي يا حبيبتي ولو لمرة، إن لم تصدقي ما أقول فانظري للأخبار ستتأكدين أنني أقول الحقيقة..

صمتت فدوى وقامت بإشعال التلفاز، فوجدت كل القنوات تعرض صورهم؛ وضعت يدها على فمها وقالت ما بينها وبين نفسها:

-يا ليت الأرض ابتلعتني قبل رؤيتي له في هذه الحالة المقززة..

-هل تأكدتِ الآن مما قلته لكِ؟

لم تَرّد عليها فدوى من هول ما رأته..

-ابنتي باللّه عليكِ، افتحي الباب..

قامت الفتاة وفتحت الباب ببطء، لم تصدق الأم ما رأته فقد كانت ابنتها فاقدة لكل ملامحها؛ عانقتها وقالت لها:

-احمدي الله فقد كنت ستقعين في مستنقع الدم..

في جحيم بيتنا زهرة

سَقطَتْ زخات عينيها على العجين وهي تقوم بدلكه، شهقت مطولًا وارتجفَ كل عضو فيها، كانت تلعنُ اليوم الَّذي تزوجت فيه ثُمَّ ما لبثتْ حتَّى استغفرتْ الله وقالت:

-هذا ابتلاء يا خالقي، سأحاول الصبر عليه، أرجوك لا تكلفني ما لا طاقة لي به؛ فقد وصلتُ لأقصى حدودي..

لم يكن من السهل عليها العيش في وضعية كهذه، أُمٌ لثلاثة أبناء، بُشْرَى الكبيرة تبلغ خمسة عشر سنة أَمَّا آخر العنقود محمد يبلغ ست سنوات وأوسطهما عبد الجليل أحد عشر سنة، تعملُ ليل نهار على ماكينة الخياطة كي تجمع دنانير معدودات؛ تشتري بها أَكْلًا يسكتُ صراخ البطون وبعض المستلزمات المنزلية، هذه المرأة المكافحة من أجل إسعادِ فلذات كبدها هي كذلك زوجةٌ لرجل وما هذه الكلمة إلَّا تنقيص من قيمتها، هو ذكر فقط، لا يهتم بزوجته إن هي تعبت أَوْ مَرِضَتْ، إن سَقَطَتْ أو جُرِحَتْ، إن أَكَلَتْ أو ضَاعَتْ في طريق الجوع، لا ينظرُ لأبنائه ولا يعطيهم حقهم من حنان الأب والاهتمام بهم، لا يعمل ويبقى طِوال النهار مستندًا على جدار أحدِ البيوت، هو فقط يبحث عن نفسه، وعن ما يسعده حتَّى وإنْ كان مخالفًا لقيمِ دينه..

تَوَقَّفَتْ عن الدلك ورفعت رأسها نحو السقف، كانت عيناها متحسرتان على الحالة الَّتي هي فيها، أمَّا كتفاها فقد سقطا من ثقل الهَم، تمتمت بكلمات غير مفهومة فإذْ بها تتفاجأ بصوت يناديها بغضب، ويدنو إليها بخطوات مصدرة دويًا أرهبَ لها قلبها، وقفَ بمحاذاتها ذلك الطاغية المستبد، مُتسخُ الملابس كأنَّه كان داخل المجاري، تَفوحُ من أنفاسه رائحة مقززة، أظافر يديه طويلة ومتسخة بلون أخضر؛ ترك شعره متشعثا أمَّا جانبي فمه فمليئان بالزبد، قال لها متجشئا على وجهها:

-أعطني المال..

قالت وصوتها يتذبذب:

-لا أستطيع، آسفة

أعاد لها ما قال سابقًا لكن هذه المرة بنبرة خشنة:

-أعطني المال..

- لا أستطيع، أرجوك تفهم الوضع، أنا أدخره كي أدفع مبلغ فواتير الكهرباء والماء، أرجوك اعذرني فأنا لا أستطيع..

أمسكها من رأسها وضغط عليه بأصابعه فظهرت عروق يده، ثُمَّ قذفه على العجين فالتصق بوجهها، رفع لها رأسها وأمسكها من خلف رقبتها، التقت نظراتهما..

كانت ربيعة تلك اللحظات تشكو ضعفها لله، بقلب يرتعد خوفا..

- يا حمقاء، لقد أدخلتك هذا البيت كي تلبي لي رغباتي، وَظيفتكِ إحضار المال لي، التنظيف والصمت فقط، أنتِ مجرد عبد ينصاع لأوامري، لقد اشتريتكِ، إذن إيَّاكِ وتجاهل طلباتي..

عَضَّتْ ربيعة شفتها السفلية فسالت قطرات الدم منها، بلعت شهقاتها وضغطت على مئزر المطبخ الَّذي ترتديه بكلتا يديها..

ظنَّ زوجها أنَّها ستخافُ منه وتعطيه المال، لكن لَمْ ير منها سوى نظرات الحقد الّتي أكلته بها..

قال لها:

- هاااه، لا تريدين إعطائي المال؟! حسنا سآخذه بالقوة..

أمسكَ لها يدها اليمنى ونزع لها خاتمها الذهبي..

تَرَجَتْهُ ربيعة قائلةً:

- يا عَلِي أرجوكَ لا تأخذه مني، إنَّه ما بقي لي من والدتي! يا عَلِي! خَفْ الله، لماذا تفعل هذه الأمور؟! أنتَ تؤذينا، ألا ترى ما يحدث لنا!؟ أرجوك..

لم يعرها أي انتباه بل بقي يُقَلِبُ ذلك الخاتم بين يديه ويقول ما بينه وبين نفسه:

-إنَّه مُهترئ، ولن أجني منه المال الكثير، لكن سأشتري قنينة خمر ولفيفة حشيش بعد بيعه..

أدار ظهره وبادر بالمشي نحو باب الخروج؛ فأمسكت ربيعة بقدمه وهي مستلقية على الأرض..

- أرجوكَ يا عَلِي أعده..

لم تنبسْ شفتاه بكلمة، بل اكتفى بتحريك رجله الأخرى وضرب وجهها بقدمه وأكمل طريقه إلى الخارج، تاركًا ندبةً لا تُشْفَى في روحها وإن مَرَّتْ السنين..

استندتْ على الحائطِ وجلست القرفصاء، لم تتكلم، لم تقل أَيَّ شيء واكتفت بمسح دموعها..

في تلك الأثناءِ طُرِقَ الباب، قامت مسرعة ورتبَّت نفسها كي لا يظهر عليها أي شيء..

- هؤلاء أبنائي قدموا، لا أريدهم أن يرون بهذه الحالة، هيَّا ابتسمي ابتسمي..

أَمسكتْ مِقبضَ الباب وما إنْ فتحته حتَّى انهالت عليها القبلات من كل صوب..

عانقوها فكادت عظامها تنكسر وفركوا لها شعرها بأناملهم ثُمَّ قالوا لها:

-اشتقنا لكِ يا أمي..

برمشة عين تغيَّر حالها.

-هيَّا يا أبنائي، لقد حضَّرتْ لكم الغداء والحلوى التي تحبونها..

صرخ عبد الجليل قائلا:

-أنتِ أفضل أُم!

اجتمعوا حول مائدة الطعام وجلسوا على الحصير، كانت الأطباق مليئة بالحساء وفي الوسط الخبز، بدؤوا بالأكل لكن عبد الجليل انتبه لعدم وجود خاتم أمهِ، وكذلك كدمة حمراء على خدها الأيسر، تَرَكَ الملعقة من يده وقال لها:

-ما الّذي حدث لوجهك يا أمي؟! أين هو خاتمك؟ !

-كُلْ يا ولدي قبل أن يبرد الحساء..

-أَجِيبِينِي..

-لقد ضاعَ مِنِي الخاتم أمَّا الكدمة فقد ضربت وجهي على النافذة بلا علمي..

-سَأَحْضِرُ لكِ ثَلجًا مِنَ الثلاجة كي تضعيه على خدكِ..

-لا عليكَ، أنا لا اشعر بأي ألم..

-حسنًا فلنبحث عن الخاتم فهو عزيز عليكِ..

- سَنبحثُ عنه لاحقًا، الآن تناول غداءك..

طأطأ رأسه وقال:

-كما تريدين..

أكمل الأطفال غداءهم، كان ثلاثاءً صامتًا عليهم، هم لا يدرسون مساءً بهذا اليوم فأخذ كل واحد منهم مكانه وأغمضوا أعينهم فدخلوا إلى عوالم أخرى وهم نائمون..

كانت الأمُ تنظر إليهم، لم تُكَنْ خائفة ولا متحسرةً بل رَأَتْ أبناءها كأنَّهم ملائكة نقية، لم تستطع إبعاد ناظريها عنهم وهُزَّتْ روحها فاستلقت بجانبهم معانقةً إيَّاهم، أُغْلِقَت جفونها وراحت هي كذلك داخل عالم آخر..

تُشِيرُ عقارب الساعة إلى التاسعة أَلَمًا وقهرا، الوقتُ يَمُرُ سريعًا، لا يمكن لأحد الوصول إليه وتجاوزه فدائما ما يكون هو بالمقدمة.. وهكذا ربيعة لم تشعر به واستيقظت على صوت صراخ، شتم وبكاء..

كان القمر يرمي بنوره داخل الغرفة التي هي فيها، لا وجود للأطفال لكن أنينهم يأتِي من آخر الرواق، قامت الأمُ مسرعة متوجهة نحوهم؛ رأت أفظع شيء، كان الأب المتوحش ثملًا، يُمْسِكُ بين أصابع يده اليسرى سيجارة حشيش ويضرب أبناءه بحزام بنطاله، أبعدته ربيعة عنهم وأحاطتهم بذراعيها كي تحميهم، لكن لم يتوقف بل بقي يضرب ظهرها وهي تصرخ..

- يا حقيرة! هذا جزاؤك، تألمي أكثر أنتِ تستحقين ما يحدث لكِ، أريد رؤية الدماء تسيل منكِ..

قال لها الأطفال:

-أُمِي، ابتعدي، لا تخافي منه، هيَّا ابتعدي سنخرجه معًا..

أمسكَ ذلك الوحش بشعر ابنته الكبرى وقال:

- ماذا تقولين يا حمقاء! تريدين إخراجي مع إخوتك من هنا؟

أبعد عبد الجليل يَدَ أَبِيهِ مِنْ شعر أخته وعندما أراد الطاغية صفعه، تَدَّخَل أحد الجيران عندما سمع أصواتهم فأمسك به وقال له:

-هداك الله! ما تفعله لا يليق براعي..

أخرج الجار الأب وطلب من ربيعة أَنْ تُغلق الباب جيدا وكذلك النوافذ، أمَّا هو فسيهتم بأمرِ ذلك الزوج..

جَلَسَ الكل مع بعضهم داخل غرفة واحدة، ملتحمين كحلقات سلسلة، يتحسرون على الوضع الّذي هم فيه، مُشَتَتٌ نظراتهم، لا أمل لهم في هذه الحياة، تلاشت طموحاتهم المستقبلية وأصبح ذلك المتسلط حجرًا داخل أحذيتهم المرقعة، تؤلمهم كلما خطوا نحو الأمام..

عقارب الساعة لم تُرِدْ التوقف بل تابعت سيرها وها هي الآن تشير إلى منتصف الليل..

طلبت الأمُ منهم أَنْ يخلدوا إلى النوم فيوم غد لهم موعد مع الدراسة..

ناموا على الأرض مثلما يفعلون دائما، بُشْرَى على الجهة اليمنى مِنْ أمها والآخران على الجهة اليسرى، فوقهم غطاء رَث لا يُدَفِئهم ولا يغنيهم من بَرد، رغم هذا فَإنَّ فُؤَاد وحب أُمِهِمْ قد نشر الدفء في الغرفة وأُغلقت أعينهم..

ها هو يوم جديد وقد أشرقت الشمس بأمر من ربها وجَهَزَ الأطفال أنفسهم للذهاب إلى المدرسة، كان أول من خرج هو عبد الجليل، تحيَّرت الأمُ فقد اعتاد الذهاب مع إخوته لكنه قال لها كلمات قليلة عند خروجه ترددت صداها في أذنها:

- سَأُغَيِر حياتنا..

ثُمَّ ذهب..

لمْ يأخذ عبد الجليل طريقَ المدرسةِ بل ذهب لأحد البيوت، كان يدعوا الله في قرارة نفسه أَنْ يُسَهِلَ له أمره، طرق الباب ثلاث مرات فخرجت له شابة في مقتبل العمر..

- السلام عليكم..

-و عليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته..

-أريد التكلم معك من فضلك !

-أهلا بكَ..

-أنا سأجتاز شهادة التعليم الابتدائي هذه السنة، أريد التحصل على نقطة عالية لأدخل إلى صفوف أشبال الأمة، لذلك وجب عَليَّ الدراسة جيدا، أُرِيدُكِ أَنْ تُدَرسيني لكن ليس لدي المال، أَعِدُكِ أنني عندما أعمل سأعطيكِ أَجركِ، فهلَّا تكرمت ودرستني؟!

ابتسمت الشابة وقالت:

-حسنًا، إنَّ وعد الحر دين..

- وأنا حر..

-إذن سنبدأ الأسبوع القادم، يوم الأحد على الساعة الرابعة..

- سأكون في الموعد، أراك لاحقا معلمتي، في أمانِ الله..

ثُمَّ اختفى كأنَّه لم يكن موجودا، يجري كي يصل في الموعد المحدد إلى مدرسته، يحمل فوق ظهره أمله لغد مشرق، أمَّا الشابة فقالت:

- حفظك الله أنتَ كذلك يا رجل المستقبل..

تمت بفضل الله..